

## المحاضرة الثانية: بيانات الحداثة العربية (01): بيان الحداثة أدونيس:

أولاً: مفهوم الحداثة عند أدونيس:

ذهب أدونيس (علي أحمد سعيد إسبر 1930/..) في تعريفه للحداثة، على صعوبة الإحاطة بمفهومها الصريح، إلى أنّها "لا تُقِيمُ إلا بمقاييس مستمدّة من إشكالية القديم والمحدث في التراث العربي، ومن التطور الحضاري العربي، ومن العصر العربي الراهن، ومن الصراع المتعدد الوجوه والمستويات الذي يخوضه العرب اليوم... والحداثة تنقسم إلى: علميّة، وحداثة التغيرات الثورية الاقتصادية، الاجتماعية، السياسية والحداثة الفنية"<sup>1</sup>، يقصد بالحداثة العلمية إعادة النظر في معرفة الطبيعة من أجل السيطرة عليها، أما الحداثة ثوريا، فيعني بها قيام نظريات وحركات جديدة تعمل على تقويض البنى التقليدية للمجتمع، وإعادة بنائها وفق أنظمة جديدة.

ثانياً: الحداثة الفنيّة عند أدونيس:

وعن الحداثة الفنية يقول: "هي تساؤل جذري يستكشف اللغة الشعرية ويستقصيها، يفتح آفاق تجريبية جديدة في الممارسة الكتابية، وهي ابتكار طرق للتعبير تكون في مستوى هذا التساؤل، وشرط هذا كلّهُ الصدور عن نظرة شخصية فريدة للإنسان والكون.. فالحداثة رؤيا جديدة، وهي جوهرياً، رؤيا، تساؤل واحتجاج، تساؤل حول الممكن، واحتجاج على السائد، فلحظة الحداثة هي لحظة التوتّر أي التناقض والتصادم بين البنى السائدة في المجتمع، وما تتطلبه حركته العميقة التغييرية من البنى التي تستجيب لها وتتلاءم معها"<sup>2</sup>، لكنّ أدونيس يؤكّد أنّ تلك المستويات قد تأتلف مبدئياً ولكنها تختلف تطبيقياً، لأنّ صعوبات الواقع وتحدياته جمة، لا سيما أمام المستويين الأوّلين، في حين يسهل التغيير على مستوى الحداثة الفنية، لأنّها لا تُعنى كثيراً بالتغيير الفاعل والمطلق في المجتمع مقارنة بالمستويين الأوّلين.

في الوقت الذي يرى فيه بعض الدارسين أنّه لا مجال للفصل بين الحداثة في الحياة والحداثة في الأدب، وأنّ العلاقة بينهما جدليّة تفاعلية، علاقة أخذ وعطاء، ذلك أنّه ليس لأيهما فضل الأسبقية على الآخر، فليس الأدب وحده من يقوم بتحديث المجتمع إذا كان متخلفاً، وليس المجتمع وحده من يقوم بتحديث الأدب إذا كان على حال ميؤوس منها<sup>3</sup>، نجد أدونيس يفصل بينهما، عندما يقرّر أنّ المجتمع العربي خلوّ من الحداثة العلمية وحداثة التغيرات الثورية الاقتصادية، الاجتماعية السياسية، لكنه على قدر يسير من الحداثة الشعرية، في حين أنّ حداثة العلم في الغرب متقدمة على حداثة الشعر، ممّا يشي بأنّه لا

<sup>1</sup>. أدونيس (علي أحمد سعيد)، فاتحة لنهايات القرن، بيانات من أجل ثقافة عربية جديدة، ط1، دار العودة، بيروت، لبنان، 1980، ص321.

<sup>2</sup>. المرجع نفسه، ص321.

<sup>3</sup>. ينظر، خليل الموسى، الحداثة في حركة الشعر العربي المعاصر، ص12.

مجال للائتلاف بين الحداثات المذكورة والتوافق بينها، مُلغيا بذلك قانون التفاعل والتجاذب النفسي التطوّري بين الأقطاب الحداثوية الثلاثة.

ثالثا: نشأة الحداثة الشعرية العربية من وجهة نظر أدونيس:

وعن نشأة الحداثة الشعرية العربية، يرسم أدونيس مسارات نظرية تقوم على الإجابة عن ثلاث أسئلة هي:

▪ إشكالية نشوء الحداثة في المجتمع العربي.

▪ إشكالية التعارض شرق/ غرب.

▪ معنى الحداثة الشعرية العربية وخصوصيتها.

يُجيب أدونيس عن تلك الإشكالات الثلاث بجملته من النقاط المهمة يمكن إيجازها فيما يلي:

➤ نشأ المحدث الشعري العربي عند خروجه عن محاكاة النموذج الشعري القديم، أي التمرد على معيارية القصيدة العمودية، بسبب ظروف المرحلة التاريخية والحضارية التي فرضت ابتكار طرق جديدة في التعبير الشعري.

➤ تتضمن الحداثة الشعرية العربية معاني المغايرة والخروج عن النمطية السائدة، وهي بهذا ليست ابتكارا غريبا، بل له جذور أصيلة في حركة الشعر العربي القديم، مع أسلافنا الشعراء.  
➤ ينبغي أن يقوم المحدث الشعري على التفاعل مع تراث الأمم الأخرى، والنهل من ثقافتها، مثلما كان الأمر عليه في العصر العباسي.

➤ سياقات الحداثة الشعرية العربية تختلف عن مثيلاتها الغربية، فالحداثة الشعرية العربية تختلف عن الفرنسية مثلا، والحداثة هي دائما حداثة شعر معين في شعب معين في أوضاع تاريخية معينة.  
➤ الحداثة الشعرية هي الاختلاف في الائتلاف، الاختلاف من أجل القدرة على التكيف مع التغيرات الحضارية، والائتلاف من أجل التأصل والمقاومة والحفاظ على الخصوصية.

➤ الحداثة إشكالية عربية قبل أن تكون غربية، فهي تعود إلى بداية القرن السابع، ولهذا ينبغي تقييمها استنادا إلى مقاييس عربية لا غربية.

➤ الحداثة هي مناخ عالمي، مناخ أفكار وأشكال كونية، إنها حركة عامة وشاملة، تشارك فيها كل الشعوب، سواء بالاختلاف أو بالائتلاف، بالالتقاء أو بالانفصال، وبدرجات تفاعل مختلفة، كما أنه ثمة تفاوت بين الشرق والغرب في ممارستها التطبيقية.

➤ حداثة الشعر العربي لا يصحّ أن تبحث إلا استنادا إلى اللغة العربية ذاتها، وإلى شعريتها وخصائصها الإيقاعية التشكيلية، وإلى العالم الشعري الذي نتج عنها، وعبقريتها الخاصة في هذا كله<sup>4</sup>.

#### رابعاً: آراء أدونيس حول الشعر الجديد:

أمّا بالنسبة لآرائه حول الشعر الجديد، فهو متأثر بأفكار إزرا باوند وت.اس. إليوت، وإذا استثنينا رأيه في ضرورة أن يكون الشعر الجديد فاعلاً في فهم العالم، مسهماً في تغييره، وهي النقطة التي يشترك فيها أغلب شعراء الحداثة، نجد أنّه يشدّد على السمات المستمرة وليس العرضية والمؤقتة في الشعر الجديد، كما يدعو إلى وجوب استقلاليته عن الاهتمامات الإيديولوجية لأنّ له أهدافه ووظائفه الخاصة، وهو في هذا الرأي لا يختلف عن إليوت، بل ويتفق معه أيضاً في مسألة اللغة الشعرية، من حيث كونها تعكس شخصية الشعب ووضعه الاجتماعي، كما تساعد الإنسان في سعيه الدائب نحو التكيّف مع واقعه<sup>5</sup>، لكنّ أدونيس متشدّد في فصاحة اللغة، ويرفض قطعاً، توظيف العامية أو لغة الحكي اليومي في الشعر، الأمر الذي جعله يدخل في صراع مع زميله يوسف الخال، الذي دعا إلى استبدال الفصحى بالعامية، وكان ذلك سبب الخلاف بينهما.

من جهة أخرى، يحرص أدونيس على أن لا تكون الإيديولوجيا<sup>6</sup> هي المحرك الأساس للشعر الجديد، وإنّما العواطف والانفعالات هي ما يمدّه بعناصر التخيل اللازمة، ويتجلّى هذا التوجّه أكثر في كتاباته لقصيدة النثر، فهي عنده كائن حيّ متحرّك ومفاجئ، لا تخضع لمقاييس مفروضة بشكل قبليّ.. وتقوم قصيدة النثر عنده على إلغاء مبدأ التقفية الإيقاعية واستبدالها بالجملة الشعرية التي تخرج إلى أنواع: النافرة والمتضادة والمفاجئة والموحية والغنائية، وكل نوع من هذه الأنواع يؤدي وظيفة في التجربة الشعرية، منها ما يحدث الصدمة لدى المتلقي، ومنها ما يختصّ بالأحلام والانفعالات والعواطف والرؤى<sup>7</sup>.. وتتميز قصيدة النثر عند أدونيس بكونها ذات وحدة عضوية، وبناء فني متميّز بالكثافة والإيجاز، وهي المبادئ نفسها التي وضعتها سوزان برنار، واستمدّها عنها أدونيس، على سبيل الانفتاح والتجاوز الفنيّ مع منجزات الآخر.

اشتغل أدونيس في بعض شعره الحداثي، على توظيف الرمز الأسطوري، ويعمل أحياناً على تطويره ليصبح فناً، مثلما نجده في قصيدة (أغاني مهبّار الدمشقي)، "حيث ابتكر شخصية أسطورية خاصة به، وكان فيما سبق من آثاره الشعرية، يلجأ إلى صيغ أسطورية معروفة ينتزعها من حركيتها التاريخية

<sup>4</sup>. يُنظر، أدونيس (علي أحمد سعيد)، فاتحة لنهايات القرن، بيانات من أجل ثقافة عربية جديدة، ص322/338.

<sup>5</sup>. يُنظر، عاطف فضول، النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس، تر، أسامة إسبر، ص87.

<sup>6</sup>. يُنظر، المرجع نفسه، ص88.

<sup>7</sup>. يُنظر، السعيد بوسقطة، أحسن مزدور، حركة مجلة شعر وإشكالية المشروع الحداثي، تنظيراً وإبداعاً، ص93/94.

ويعيد إحياءها بالرموز والدلالات المعاصرة، رابطاً بذلك بين العضلات الإنسانية الأزلية ومواجهات الإنسان المعاصر"<sup>8</sup>، غير أنه في هذه القصيدة، ينقل تجربته الفردية الشخصية إلى عالم الكينونة الجماعية، عبر رحلة بحث دائمة تحمل بين ثناياها هوية متحركة باستمرار، متقنّاً بقناع (مهيبار)، متجاوزاً الاستخدام الكلاسيكي للرمز الأسطوري في الشعر، وهو ضرب من الحداثة في شعر أدونيس.

يخلص أدونيس في كتابه (الشعرية العربية) إلى أنّ الحداثة الشعرية "نشأت في حركة بثلاثة أبعاد، البعد المديني الحضري بقيمه ورموزه، في مقابل الصحراء أو البادية.. والبعد اللغوي المجازي أو بلاغة المجاز في مقابل ما نسمّيه ببلاغة الحقيقة.. وأخيراً بُعد التفاعل مع ثقافات الآخر غير العربي، والتشبع بها إحاطة وتمثلاً"<sup>9</sup>، ويؤكد على ضرورة إعادة النظر، بوعي ثاقب، في مسيرة الحداثة الشعرية العربية ومشكلاتها، مع الحرص على فهم الذات والآخر، وإلا ستبقى الحداثة الشعرية العربية مرهونة بمصطلح التبعية الغربية، والاستلاب الإبداعي.

<sup>8</sup>. خالدة سعيد، حركية الإبداع (دراسات في الأندلس العربي الحديث)، ط3، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1986، ص117.

<sup>9</sup>. أدونيس، الشعرية العربية، دار الآداب، ط2، بيروت، لبنان، 1989، ص95.